7 شارلوت برونتي

الأديبة الإنجليزية، صاحبة التحفة الأدبية «جين إير»، التى تُعتبر أثراً روائياً لما انطوت عليه من تحليل لكل المشاعر الإنسانية المتناقضة من حب وبغض وخوف وندم..

تنتمى - حسب رأى النُقّاد - إلى نفس الفئة بالغة القلة من الروائيين الأفذاذ أمثال: «دستوبفسكى» و«لورانس».

حياتها سجل حافل لمآسى لم تنته فقد شهدت رحيل أمّها وجميع إخوتها، وصُدمت فى قصة حُبِّها الوحيدة، ورحلت فى ريعان شبابها وهى تنتظر مولوداً لم تره!!

«إنَّ الفقراء لا يحتاجون إلى الكثير حتى يكون بقاؤهم فى الحياة .. وأنا الأخرى لا أطمع بغير قسط ضئيل من عطف مَنْ أُحبُّهم ...»

تمهيد :

الأخوات برونتى «شارلوت» و«إميلى» و«آن»، بصماتهن كان تراثاً أدبياً قفز إلى لائحة العالمية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر . كانت أسرة آل برونتى أُسرة العبقرية، وأُسرة الفواجع أيضاً، إمبراطورية قائمة بذاتها، متفردة، ومتميزة. سطرت كل واحدة منهن رائعة من التحف الروائية العالمية، بعد انطلاقة يشهد عليها درب وعر، وظروف مأساوية، لكنهن بقين صامدات أمام نوائب الدهر وهن اللواتى بقين على قيد الحياة من أفراد أسرة استفحل بها داء التدرُّن الرئوى، إلاَّ أنهن متن جميعاً فى عُمْر الزهور!!

عشن فى فراغ رهيب، موحش، فلم يجدن ما يملأن به فراغ حياتهن منذ الصغر

سوى الأدب، ومحاولة قرض الشعر ،وتأليف القصص والروايات التى كن ينتزعهن من صميم حياتهن، ومن أحلام اليقظة التى لم يستطع الأب - غريب الأطوار - أن يتسلل إليها ليخنقها كما خنق حياتهن، لقد كانت حياة الأخوات برونتى مأساة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ .

سنبدأ الرحلة مع «شارلوت برونتى» بصفتها أكبر الأخوات .. وسوف نُسلط الضوء عميقاً على حياة تلك الأسرة مجتمعة، من الداخل ومن الخارج أيضاً، ثم نعرج بعد ذلك لنتفرغ لسرد تفاصيل حياة «شارلوت»، والولوج فى عالمها الإبداعى .

ثم نعاود مباشرة لسرد حياة وإبداع «إميلي برونتى» وشقيقتها الصغرى«آن» التى كانت أقل منهما موهبة، لكنها على أية حال كانت مبدعة بشكلٍ لافت للنظر، قياساً بمرضها ومن ثم عُمْرها القصير .

شارلوت برونتي .. الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت «شارلوت برونتى» Charlotte Bronte فى 21 من أبريل عام 1816 م فى قرية«هاورث» التى تعتمد على مصانع الصوف لكسب الرزق . لأب كان قسيساً من أتباع مذهب«جون كالفن» (1509 - 1564م) المتشدد، ويحكى التاريخ أن «برونتى» لم يظهر كاسم إلاَّ في أواخر القرن التاسع عشر حين يتحول «برانتى» إلى «برونتى» تاركاً إيرلندا وأصوله المتواضعة ليبحث عن مستقبل باهر .

و« برونتى» هو ابن فلاح إيرلندى شبه معدم، وقد تلاه بالمولد تسعة إخوة له أثقلوا كاهل والدهم، لذا شرع «برونتى» منذ الخامسة من عُمْره يؤدى الخدمات الصغيرة للجيران نظير ما تيسر من الطعام، أو بعض النقود، ولمَّا كبر قليلاً التحق بمصنع نسيج يدوى، وقد كان يختلس لنفسه فى المساء بعض الوقت ليتلقى دروساً مجانية على يد قسيس أعجب بذكاء ذلك الصبى الصغير .

وعندما بلغ «برونتى» السادسة عشر وصل من المعرفة إلى مرتبة أهَّلته لأن يكون

مُعلِّماً بمدرسة الكنيسة القريبة من مسقط رأسه وقضى عامين فى التدريس بمدرسة الكنيسة، اُختير بعدها لمدرسة كنيسة أكبر، وظلَّ هناك ثمانى سنوات يحاول بجميع الوسائل استمالة أعيان البلدة وأعضاء مجلس إدارة الكنيسة إلى أن استحوذ على اهتمامهم، فتكفلوا فيما بينهم بدفع نفقات بعثة دراسية له فى جامعة«كمبردج» فالتحق بها وهو فى سن الخامسة والعشرين، وكان أكبر الطلاب سناً وكان يتصف بطول القامة وقوة البنية ووسامة المنظر وجمال التكوين . على أن وسامته المفرطة أورثته غروراً، فأقر فى نفسه أن جماله هو الميراث الوحيد الذى ورثه عن أبيه، لأنَّ ذلك الجمال هو رأس المال الأكبر الذى سيمكنه من بلوغ ما يتوق إليه من المراتب المتميزة فى المجتمع .

وكان بعد تخرجه قد حصل على منصب فى قرية بمقاطعة«أسيكس» وهناك بدأ يستغل وسامته المفرطة فألقى بشباكه على فتاة حسناء فى الثامنة عشرة من عُمْرها وخطبها، ثم اكتشف أنَّها ليست غنية فتركها طمعاً فى فتاة أُخرى أغنى تفتح له أبواب المجد والجاه، ومرضت خطيبته السابقة حزناً وغمًّا واستنكر الناس تركه تلك الفتاة، فنقموا على فعلته فكان موضع سخطهم وازدرائهم، فرحل إلي إقليم آخر ونصب شراكه ليستغل فتاة أُخرى ثرية يُحقق من وراء زواجه بها مطامحه وأغراضه، وكان قد وصل إلى منصب القسيس وهو فى الخامسة والثلاثين من عُمْره من غير أن يُحقق حلمه . وفى نهاية الأمر تزوج من فتاة تُدعى«ماريا برونويل» ذات التسعة والعشرين ربيعاً، وهى تتصف بأنَّها ضعيفة الجسم، هزيلة البنية، ليست جميلة بدرجة لافتة، وهى ليست من بنات الطبقة الرفيعة والعريقة بل من الطبقة المتوسطة، وانتقل«برونتى» مع زوجته بعد فترة وجيزة إلى بقعة محفوفة بالأحراش عُهد فيها إلى«برونتى» برئاسة كنيستها وفى ذلك البيت المنعزل عن القرية أنجب الزوجان خمس بنات وولداً واحداً فى خلال ستة أعوام .

بداية المآسى .. رحيل الأم :

لم تعش الأم طويلاً لترى زهورها الصغيرة تتفتح، فقد وافتها المنية بعد أن أعياها

المرض عام 1821م، قيل أن مرضها كان السل الذى ألمَّ بأفراد العائلة ففتك بهم، وقيل إنه مرض السرطان الرهيب، ولكن الحقيقة تبقى مجهولة .

تترك الأمّ بناتها :«ماريا»، و« إليزابيث»، و«شارلوت»، و«إميلى»، و«آن» وكذلك ابنها«باتريك » .

راودت نفس الزوج الأرمل«برونتى» أن يتزوج من امرأة ثرية تكبره سناً، ترك لها زوجها الأول ضياعاً وأموالاً فرفضته، فأقدم على خطبة فتاة ذات غنى، فلم يجد عندها قبولاً فطوى صفحة الزواج واعتزل الناس .

ثم تطوَّعت شقيقة الزوجة الراحلة برعاية أطفاله ريثما يشتد عودهم، وها هى تحاول أن تبعث الأمل بين أرجاء المنزل الذى تصدرت جدرانه صور الموتى، فسارعت بإزاحتها تستبدلها بصور الأبناء.

أبٌ غريب الأطوار !!

كان«برونتى» شحيح الإنفاق، لذا فقد حرَّم على أطفاله أكل اللحم، لأنَّه - حسب اعتقاده - مظهر من مظاهر الترف . حتى أن خالتهم اشترت لهم من دخلها الخاص أحذية جميلة فألقى بتلك الأحذية فى المدفأة !! وعندما كبر الأبناء قليلاً أتى الأب بمنشار استأصل به ظهور الكراسى وحجرة الجلوس حتى لا يستميلوا على ظهور الكراسى مسترخين .

كانوا يعيشون فى عزلة تامة عن الناس لا يزورون أحداً ولا أحد يزورهم، ولا كانت أبصارهم تقع خلال النوافذ على غير المقابر الحزينة والمستنقعات الكئيبة وخصوصاً فى مواسم الشتاء .

لقد كان أبًا مملوءاً بالحقد على الأيام والسخط على الزمان، فكان يتجنَّب الاختلاط برعيته من الفلاحين إلاَّ لضرورة قصوى تقتضيها مسؤولياته الدينية .

وكان يُعانى من الخوف المرضى إزاء الحرائق نتيجة خبرة سيئة مرَّت به، دفعه هذا

إلى تحريم استخدام الأبسطة والستائر فى البيت، والجو فى تلك المنطقة بارد ورطب، فكان الأطفال يرتجفون من البرد معظم فصول السنة، ممَّا كان له دور بلا شك فى تفاقم الإصابة بمرض السل .

وبما أنَّه أحد رجال الدين المتشددين فقد كان يحدثهم عن الموت والحياة الآخرة، أمَّا الحياة الدنيا فلا شأن لهم بها وكان يدعو أولاده كل أسبوع إلى مكتبه لاختبار معلوماتهم عن الموت وجهنم والشياطين ؟!

حصاد الموت :

بسبب عوامل كثيرة مجتمعة منها : الاستعداد الوراثى، وشظف العيش، ونقص التغذية، والإهمال الصحى، توفيت الأخت الكبرى «ماريا» التى كانت فى الثامنة من عُمْرها عندما رحلت أمها، وما لبثت أن لحقت بها شقيقتها« إليزابيث» التى تليها فى ترتيب العُمْر، فأصبحت «شارلوت» كبرى إخوتها ؛ لذا فقد تولت مسؤوليتهم فكانت ترعاهم وتنظم حياتهم .

أمَّا الأخ«باتريك» قد كان أمل والده الذى كان حريصاً على أن يجعله هو الأديب والفنان، ولذلك بعث به ليدرس الفنون التشكيلية فى لندن، الذى عاد منها فاشلاً !!

شارلوت برونتى .. ورحلة تعليم مثمرة :

شاع بين الجيران أن عائلة«برونتى» إنما هى عائلة موبوءة بداء السل، فعزم الأب إقصاء بناته عن المدرسة عندما تنامى إلى مسامعه كيف أن بناته قد أصبحن منبوذات بتجنبهن الزميلات خوفاً من انتقال العدوى !!

ولكن عندما بلغت «شارلوت» الرابعة عشرة من عُمْرها قرَّر السيد«برونتى» إرسالها للالتحاق بمعهد «راو - هيت» فى القسم الداخلى، لتنال نصيباً من العلم، فيتوارى المنزل خلف غبار الرحيل، بينما عربة الجياد تنهب بها الأرض إلى العاصمة لندن .

وتكتشف الفتاة ما لم يكن فى الحسبان بين صفوف طالبات أرستقراطيات، قابلنها

بسخرية مريرة، وهن يهزأن من لكنتها الريفية، وملابسها الفضفاضة كعادة القرويين، ينصحنها بكيّ شعرها المسترسل، ليستطعن تمييزها عن عجوز فاتها قطار الموضة .

ولكن مع مرور الوقت بدأت «شارلوت» تتحرَّر من خجلها وتندمج مع فتيات فى مثل سنها، فكانت تحكى لهم القصص وتمتعهن بما ترويه لهن من حكايات جميلة آخاذة.

وفى نهاية كل عام كانت تحصل«شارلوت» على أعلى الدرجات وأصبح اسمها يتصدَّر لائحة الشرف الأمر الذى جعلها تعمل كمدرسة فى نفس المدرسة . ثم ما لبثت أن رحلت إلى العاصمة البلجيكية بروكسل، وهى فى السادسة والعشرين من عُمْرها لتعيش فى مدرسة داخلية يديرها مسيو«هيجر» Heger، لتتعلَّم نظم الإدارة المدرسية.

قصة حبّ من طرف واحد .. وزواج بدافع حبّ الأمومة :

فى المدرسة التى كان يديرها مسيو«هيجر» تعلَّقت«شارلوت» بهذا المدير تعلُّقاً شديداً، رغم أن«هيجر» كان متزوجاً، ورغم أنَّه كان أبشع الرجال فى العالم كما تصفه الكتب التى أرخت لحياة «شارلوت» إلاَّ أنَّه كان أول رجل ذكى يُعاملها كإنسانة، وكان هذا الحب من طرف واحد. وقد صرَّحت«شارلوت» بعواطفها فى رسالة كتبتها إليه، بعد أن عادت إلى لندن.

وهذه الرسالة تكشف إلى حد بعيد عن نفسية تلك الفتاة الرقيقة، فهى لم تطمع فى الكثير، كل ما كانت تريده هو أن تُحب حُبًّا صادقًا، وأن تشعر أن هناك مَنْ يفكر فيها ولو قليلاً، وحتى هذه الآمال البسيطة حُرمت منها، إذ لم يحفل مَنْ أحبته بالرد عليها إلاَّ مرَّة واحدة، لتعيش حياتها تُعانى لوعة أو نشوة الحُبّ الضائع . لم يكن أمام «شارلوت» لتنقذ نفسها من الجنون سوى أن تصب كل آلامها فى رواياتها .

وهكذا بقيت«شارلوت» تجتر آلامها وأحزانها دون معين، وعندما تقدَّم لها

قس يُدعى«آرثر نيكولز» وكان صديقاً لوالدها . وهو رجل لا يتمتع بأية مواهب، ويختلف عنها فى كل شىء، كما أنَّها لا تشعر نحوه بأية عاطفة جيَّاشة، ولم تقتنع به كزوج يستطيع أن يُقدِّم لها السعادة التى فقدتها طويلاً، إلاَّ أنها وافقت على الزواج منه، وكانت «شارلوت» آنذاك فى السابعة والثلاثين من عُمْرها، ربما لأنَّها كانت ترغب فى أن تصبح أُمًّا.

ديوان شعرى ثلاثى .. بأسماء ذكورية مستعارة !!

أرسلت «شارلوت» نماذج من قصائدها إلى شاعر مشهور علَّه يجيزها، ومن ثمَّ تأخذ طريقها للنشر، ولكنه كتب يرد عليها :«أجدى للمرأة أن تقود ثورة من أن تخوض معترك الشعر النابض فى قريحتنا وحدنا نحن الرجال .. حبذا لو تنكبى عزيزتى على حياكة ثوب حريرى، فما أدق أناملك فى إبرة التطريز»!!!

تهالكت «شارلوت» على أقرب مقعد من فرط صدمتها، وهى تُناجى نفسها: «لن أهجرك أيها القلم قبل أن تفارقنى الروح .. ولتكن أسماء الذكور قناعاً نُمَوِّه به قرطاسنا».

جمعت الأخوات«برونتى» باكورة إبداعهن فى ديوانٍ ثلاثى، فى غفلةٍ من والدهن، وحتى لا يكشفهن الأب، اتفقن على إصداره تحت أسماء ذكورية، فقد اختارت«شارلوت» اسم«كورير بيل»، و« إميلى» اسم«إيليس»، أمَّا«آن» فأطلقت اسم«أكتون بيل» تجنُّباً من الاصطدام بهذا الأب الذى يمكن له أن يحرق هذا الديوان إذا وقع بين يديه، ثم يُعاقبهن بعد ذلك على فعلتهن هذه !!

أمَّا شقيقهن«باتريك» فلم يخف سخريته وتهكمه فقال لهن :«يا لذاك الشعر المخنث الذى وصمتن به الرجال» !!

صدر الديوان فى عام 1845م ولم يبع منه سوى نسختين، وكانت أفضل قصائد الديوان«لإميلى» .

ثم قررت الأخوات«برونتى» أن يركزن جهودهن الأدبية، ويرسمن لمستقبل أدبى لكل واحدة منهن، فكان التحوُّل إلى عالم الرواية .

عالم «شارلوت برونتى» الروائى :

جين إير

رواية : جين إير :

قصة فتاة يتيمة الأبوين، عاشت حياة الظلم والقهر، لكنَّها كانت قوية الإرادة والعزيمة، فاستطاعت أن تحقق لنفسها السعادة التى قررتها .

كانت «شارلوت برونتى» أسبق أخواتها إلى الشهرة بقصتها الشهيرة «جين إير» Jane Eire، وتعد الرواية أثراً روائياً رائعاً لما انطوت عليه من تحليلٍ لأدق مشاعر الحبّ والبغض والخوف والحسرة .. إلخ، وقد ترجمت إلى معظم لغات العالم، ووضعت «شارلوت» فى مصاف أعظم الروائيات فى تاريخ البشرية .

وتُعد رواية «جين إير» أول رواية رومانسية بالإنجليزية .

و «جين إير» فتاة متوسطة الجمال، ضئيلة الجسم، يتيمة الأبوين، عاشت حياة ظلم وهَمّ؛ لكنها امتلكت من قوة العزم وصلابة الإرادة وحصافة العقل ما يجعلها أهلاً لتكون النموذج الذى اختارته«شارلوت برونتى» لتعبِّر من خلاله عن كل النزعات الإنسانية . فقد عبَّرت بعمق يجعل القارىء يحس بأنَّه مُشارك فى هذه الحياة ومتلهف لمعرفة محطاتها . تبدأ «جين إير» الحياة مع كل العقبات التى تعرضت لها طبيعية كانت أم اجتماعية فليس لديها والدان ولا مال، وهى فتاة فى عالم الرجال متواضعة الجمال، ولأنَّها تتمتع بشخصية قوية : فهى لن تفعل ما تؤمر أن تفعله.

تبدأ الرواية بالحديث عن الطفلة اليتيمة «جين إير» والتى تبلغ من العُمْر عشر سنوات، وهى صغيرة الجسم بالنسبة لأبناء خالها الثلاثة: إليزا، وجون، وجورجينا، حيث تعيش معهم منذ فارق أبواها الحياة، وكما حدث ذلك لخالها الذى فارق الحياة أيضاً منذ تسع سنوات . فلما أدركت ما حولهاوجدت نفسها وحيدة، تعيش بين أبناء خالها، حيث أوصى خالها زوجته بها خيراً ولكنها هى وأولادها لم يرعوا تلك الوصية خاصة ابن خالها«جون» الذى كان يكرهها كثيراً .

ولَمَّا أدركت «جين» أن أسرة خالها قرَّرت التخلص منها وإرسالها فى مدرسة للأيتام مع توصية (إنَّها فتاة لا تتمتع بالأخلاق الحميدة، وأن لديها ميلاً للخداع) كما قالت زوجة خالها لمسؤول المدرسة على مسمع من«جين» نفسها. تنتقل حياة «جين» كليةً بالمدرسة الداخلية، تفقد فيها صديقتها بمرض السل، كما أصبحت تُعانى وحشية مدير المدرسة، لكنها تُصر على أن تكمل دراستها لتصبح مُعلِّمة فيها . ثم تنتقل بعدها للعمل كمُعلِّمة ومربية فى بيت رجل غنى يُدعى مستر«روتشستر» الذى احتفظ طوال سنوات بزوجته المجنونة فى الطابق الثالث من منزله الريفى فى حراسة خادمة تدمن الخمر، ولا يساور أيًّا من الخدم الآخرين، أو«جين» مربية طفلة «روتشستر» غير الشرعية، أدنى شك فى وجودها. ويدوى المنزل بالضحكات المجنونة وهى تحاول أن تحرق زوجها فى فراشه، وتعض أخاها عندما يقوم بزيارتها .

يعرض «روتشستر» بهدوء بعد أن تودد إلى«جين» متنكراً فى زى عرَّافة غجرية عجوز فى واحدة من حفلاته، الزواج منها التى كانت فى الثامنة عشرة من عُمُرها، وعندما يفشل فى إيقاعها فى زواج رائف يعرض عليها أن تكون عشيقته، فترفض، وعلى الرغم من حبها الجم له وعدم غضبها من تصرفه، تهرب، وتمضى مسرعة على قدميها حتى يأخذ منها الإعياء مأخذه، ويكاد الجوع يهلكها، ويتشرَّب جلدها بالبلل، فتتهاوى أمام باب منزل أبناء عمومتها الثلاثة . وهناك تكتشف أنَّها وريثة أحد أعمامها الذى ترك لها مبلغاً

كبيراً عن رضا مع أبناء عمها . ويزمع أحدهم، وهو «جون ريفرز» John Rivers السفر إلى الهند للتبشير، ويقرر أن تصحبه«جين» بعد أن يتزوج منها، وذلك رغماً عن أن أحداً منهما لا يحب الآخر وبالرغم من عدم اهتمام«جين» بالإرساليات التبشيرية فهى توافق على مصاحبته، ولكنها ترفض الزواج منه . ويُصر«جون» على الزواج، وبينما هى على وشك الاستسلام تسمع صوتاً وهمياً يُناديها فى الليل :«جين، جين، جين» وتتعرَّف على صوت«روتشستر» فتهرع إلى الحديقة قائلة : أين أنت ؟» ولا يجيبها أحد .

وتُسرع «جين» بالعودة إلى«ثورنفيلد» وتعلم أن زوجة«روتشستر» قد أشعلت النار فى المنزل ثانية، وأن عاموداً من الخشب المشتعل بالنار قد سقط على«مستر روتشستر» وأصابه بالعمى، وقفزت المرأة التعسة المجنونة من فوق السطح ولاقت حتفها . وتجد«جين» حبيبه«روتشستر» وتتزوجه لتعيش سعادة حقيقية، ويضحك لها القدر مرَّة أُخرى حينما يسترد حبيبها بصره بعد سنتين من زواجهما، ويتمكَّن من رؤية مولودهما الأول .

رواية : شيرلى :

تصور الصِّراع الدائر بين العمال وأصحاب العمل، كما تصف شخصية شقيقتها «إميلى».

صدرت رواية «شيرلى» Shirley فى عام 1849 م، تلك الرواية المعنية بالمتمردين وفترة الحروب النابليونية . و« شارلوت برونتى» تحاول فى هذه الرواية تصوير مجتمع معين فى فترة مُعيَّنة، تخطت فيها حدود عبقريتها . تحاول دراسة الصِّراع الدائر بين العمال وأصحاب العمل فى صناعة النسيج فى«وست ريدنج» أثناء السنوات السابقة لعام 1815 م مباشرة .

وقد أحسنت «شارلوت» رسم الشخصيات من الرجال الأكبر سناً مثل القس المحافظ مستر «هلستون» ومستر «يورك» وهو صاحب مصنع فى يوركشير . ولكن

ثلاثى القساوسة، يثيرون الملل ويبينون افتقار «شارلوت» إلى الحس الفكاهى . كما يثير السارد الملل، إذ يوبخنا ويثير ضيقنا ويعنفنا دون توقف والشيء الذى له قيمة هو تصوير بطلتى الرواية«كارولين هلستون» Carolne Helstone و«شيرلى كيلدار» Shirley Keeldar .

والمعتقد دائماً أن «شيرلى» هو صورة لما كان يمكن أن تكونه «إميلى برونتى» لو أنَّها ولدت محاطة بالثروة والجاه . وهى فى الحقيقة واحدة من أكثر البطلات الفكتوريات حيوية وجاذبية، لقد جعلتها الثروة ندًّا لأى رجل، وهى لا ترهب أى رجل فيما عدا «لويس مور» .

«وكارولين» الأكثر من «شيرلى» دعة لا تقل عنها أهمية . فهى لا تملك مالاً أو جاهاً، فهى مجرَّد ابنة أخ لـ«هلستون» الذى يقوم بالوصاية عليها، ثمرة زواج تعس . ويمكن أن نعتبرها صيحة صادرة من أعماق «شارلوت» فى هذه الرواية. وهى ثائرة، بالرغم من أنَّها فى معظم الحيان ثائرة صامتة، ثائرة على وضع امرأة الطبقة الوسطى غير المتزوجة فى العصر الفكتورى . وهى تحس بموهبة ذاتية، كما تحس بضياعها، وهى تطالب بحقها فى العمل، الحق فى الاستقلال الاقتصادى حتى ولو كان استقلال مرببة .

رواية : فيليت :

تعيد فيها «شارلوت» تصوير علاقتها بمدير المدرسة التى كانت تدرس فيها فى العاصمة البلجيكية بروكسل .

عادت «شارلوت» في رواية «فيليت» Villette إلى الرواية الذاتية تماماً، إذ تسرد «لوسى سنو» Lucy Snowe قصتها، ونحن دائماً فى فكرها . وهى من حيث الأحداث أقرب من «جين إير» إلى الواقع كما نلحظه عادة ومرد هذا بلا شك هو أن «شارلوت» كانت تستهدى، على نحو وثيق، أحداثاً حقيقية فى حياتها الذاتية، فهى تعيد تصوير علاقة التلميذ بالأستاذ التى كانت تربطها بمسيو«هيجر» Heger فى بروكسل، فى

العلاقة بين «لوسى» و«بول إمانويل» Paul Emanuel ونظراً لأنَّ الأخير إصلاحياً، فهو أكثر إقناعاً كرجل، وإن لم يكن كرمز للرجولة من مستر «روتشستر» بطل رواية «جين إير» وهذه العلاقة هى قلب الرواية، وهى تصف كل ماله علاقة بحياة «لوسى» فى مدرسة مدام «بك» Beck بحدة تكاد تبلغ حد الهذيان .

وهناك اضطراد فى استقامة البطلة الأخلاقية، وهى تمثل كمخلوقة عنيدة، مغترة، تفتقر إلى المرح. يوازن مشاعرها العنيفة اهتمام لا يقل عنها عنفاً بالأخلاقية التقليدية، كما فى المشهد الغريب التى ترفض فيه «لوسى»، التى كان قد طُلب منها أن تستعد بسرعة للاشتراك فى مسرحية مدرسة بنات، ترفض أن ترتدى ملابس الرجال وتزين سترتها ذات الهدب بكنار أرجوانى .

ونحن نتعرَّف على إمكانات «شارلوت» الروائية عندما نتأمَّل فى هذه الرواية تجسيدها الرائع لمدام «بك» الشريرة، وفوق كل هذا ، فى تصويرها المُخيف للعزلة الإنسانية عندما تبقى «لوسى» فى المدرسة بمفردها أثناء العطلة مع فتاة بلهاء .

الرحيل :

عندما تزوجت شارلوت، باتت تنتظر حادثاً سعيداً، فرحت كثيراً عندما أيقنت أنَّها ستصير أمًّا، لكن هذه الفرحة لم تدم طويلاً إذ أن الموت لم يمهلها لتنعم برؤية طفلها الأول، الذى لم يولد بعد، فماتت فى عام 1855م وهى فى التاسعة والثلاثين من عُمْرها بمرض السل اللعين، الذى قضى على جميع أخواتها من قبل، وكذلك الأخ الوحيد لها .